

تفريغ الدرس الخامس عشر من شرح كتاب: "رياض الصالحين" للحافظ

النووي

-رحمه الله تعالى-.

قال الشيخ محمود الشيخ -حفظه الله تعالى-:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا -أيها الإخوة بارك الله فيكم- المجلس الخامس عشر من مجالس شرح "رياض الصالحين" للحافظ النووي -رحمه الله تعالى وعفا عنه-.

وقال في الباب الثامن، قال: **(باب الاستقامة):**

قال الشيخ العثيمين: "هي أن تثبت" أي: الاستقامة "هي أن يثبت الإنسان على شريعة الله عز وجل كما أمر، ويتقدمها الإخلاص لله عز وجل" هذه هي الاستقامة، ونقصد بالاستقامة: الشرعية.

قال المؤلف: **(قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ [هود: 112]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: 30-32]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: 13-14]).**

هذه الآية: **(فاستقم كما أمرت)** أمر للنبي ﷺ والمراد بذلك أمته، والقاعدة: "أن الخطاب للنبي ﷺ يكون على وجه العموم، -أي: له ولأمته- إلا إذا جاء دليل خاص على أنه خاص به" فإن جاء دليل خاص على أن هذا الشيء خاص بالنبي ﷺ كما في الزواج {خالصة لك من دون المؤمنين} فهذا يخرج عن القاعدة، ولكن الأصل: أن الخطاب

لأمة النبي ﷺ، وإن كان اللفظ بخصوصه للنبي ﷺ، (قل)، (استقم)، افعل...، فهذا الأمر وإن كان المخاطب به النبي ﷺ في الظاهر، ولكن المقصود: النبي ﷺ وأمته، إلا إذا جاء دليل خاص كما قال الشيخ العثيمين في قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك...} هذا كله خاص بالنبي ﷺ، وقوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني، والقرآن العظيم} هذا خاص بالنبي ﷺ، أما قوله تعالى: **{فاستقم كما أمرت}** جاء في الآية: {ومن تاب معك، ولا تطغوا}، وهنا: {فاستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم} **الاستقامة**: الثبات على ما يريده الله، أن تعبد الله كما أمرك، وكما يحب، لا كما تريد وما تحب، أن تكون متبعا لما قاله الله، وما قال رسول الله ﷺ مع الإخلاص، الإخلاص والمتابعة هما شرطان لقبول العمل، العمل الصالح لا ينفع مع النية الفاسدة، والنية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد، لا بد أن يشترك في العمل الذي يقبله الله - سبحانه وتعالى -، هذان الشرطان: الإخلاص فلا تشرك مع الله أحدا، ولا تدع مع الله أحدا، والمتابعة فلا تعبد الله على هواك، بل بما يريده الله - سبحانه وتعالى -، طاعة: أمرا ونهيا، هكذا تكون مستقيما، لا إلى غلو، ولا إلى تقصير، تكون مقاربا كما يريد الله - سبحانه وتعالى -، تبحث عن السداد في الفعل والقول؛ لذلك سنذكر بعد قليل الحديث الذي قاله النبي ﷺ قريب، وهو قريب من هذا.

قال المؤلف -رحمه الله- في الحديث الخامس والثمانون، عندنا في هذا الباب حديثان حقيقة، قال:

وعن أبي عمرو، وقيل: أبي عمرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه، قال: **قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: ((قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ))** رواه مسلم.

هذا ما يوافق الآية، هذا سؤال رجل كيس فطن، يريد شيئا جامعا مانعا، والنبي ﷺ أوتي جوامع الكلم.

فقال: **(قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ)** فقال له النبي ﷺ هذا القول الجامع: **(قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمَّ)**، أولاً: أن تكون مؤمناً بالله - سبحانه وتعالى-، {الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} أن تكون مؤمناً بالله: مؤمناً بوجوده، مؤمناً بوحديته: باستحقاقه للألوهية من غير شرك، وأنه واحد في ربوبيته: فهو الرب الخالق الرازق المدبر المحيي والمميت، له الملك -سبحانه وتعالى-، تعترف بأسمائه وصفاته؛ فإن لكل اسم صفة في هذا الاسم، عندما تثبت اسماً لله أنت تثبت ذاتاً لله، هذا اسم يدل على ذات الله، وعلى الصفة التي يتضمنها هذا الاسم، وإن كان هنالك أثراً مترتباً عليها، أو لازماً تثبته كذلك، كصفة الرحمة مثلاً، كاسم الرحمن أو الرحيم، فإنك تثبت لله اسماً لذات الله -سبحانه وتعالى- اسمه الرحمن، اسمه الرحيم، ويتضمن هذا الاسم صفة الرحمة، ويترتب على هذه الصفة ما يتعلق بالعبد من أثر في الدنيا أو في الآخرة، هنالك لوازم لبعض الصفات عندما تقول: الخالق فإننا نثبت اسم الخالق لله -سبحانه وتعالى- وصفة الخلق، وهنالك لازم وهو: القدرة والعلم، فكيف يكون خالقاً بلا قدرة ولا علم، هكذا تكون مؤمناً تؤمن بالله: مؤمناً بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتؤمن بكل شيء أمرك الله به، إن أمرك الله أن تؤمن به، تردد ذلك بقلبك ولسانك إذا آمنت استقم كما أمرك الله، لا تعبد الله بما تريد، أنت لا يكفي أن تؤمن بالله فقط، بوجوده ووحدانيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته إلى آخره، بل أعبد الله الذي تؤمن به بما يريد الله -سبحانه جل في علاه- كما أمرت، فاستقم كما أمرت **(قل آمنت بالله ثم استقم)** هذا الذي يؤمن بالله ثم يستقيم فله فلاح في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله} معترفين بذلك مؤمنين به بربوبيته، وبكل ما يختص به قال: "ثم بعد ذلك استقاموا وهذا شرط لقبول العمل أن يكون إيمان قبل ذلك، فلا يقبل العمل الصالح من غير مسلم".

{ثم استقاموا} قال: {تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} إذا كنت كذلك وهذه حقيقة، هذا الباب باب الاستقامة وهذه الآية عظيمة،

شيء طيب جدا، يفرح قلب المؤمن عندما تكون مؤمنا بالله مستقيما على طاعته، لا تتبع هواك، ولا تتبع أهواءهم، تكون وليا لله -سبحانه وتعالى-، {تتنزل عليهم الملائكة} ماذا يقولون له؟ ولربما ماذا يضعون في قلبه؟ بأمر من الله -سبحانه وتعالى-، ويجعل الله هذا في قلبك {ألا تخافوا} لا تخف {ولا تحزنوا} لا تحزن، هذا في الدنيا، وفي الآخرة يطمئنونك في الدنيا فلا تكون خائفا من الأعداء، ولا من أحد إلا الله، وكذلك في الآخرة يكونون معك ويطمئنونك لا تخف ولا تحزن، قال: {وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} يوم القيامة خطير وعظيم وشديد، فينظر الإنسان، يخشى على نفسه الهلاك، دعوة الأنبياء فيها: "اللهم سلم سلم" يطلبون السلامة {تتنزل عليهم الملائكة} تطمئنهم {لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} كذلك قال: {نحن أولياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة} أولياء لك في الدنيا وفي الآخرة، هل تخاف بعد ذلك أحدا غير الله -سبحانه وتعالى-؟ أبدا، إذا كنت مؤمنا حقا مستقيما على طاعته صدقا قولا وعملا واعتقادا، فأنت ولي للرحمن {نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون} يوم القيامة في الجنة كل ما تشتهي نفسك موجود "فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" بل إذا طلبت شيئا يأتيك {ولكم فيها ما تدعون} لماذا؟ {نزلا} من باب الضيافة {نزلا} أنت ضيف عزيز على الله -سبحانه وتعالى-، لكن لا تدخل الجنة بعملك، هذه أسباب إنما تدخلها برحمة من الله وفضل، فأنت ضيف عزيز برحمة الله وفضله، ومغفرة منه؛ لذلك قال: {نزلا من غفور رحيم} فالله -سبحانه وتعالى- غفور رحيم، غفر الزلات وكفر السيئات، ورحمك فصرت ونزلت ضيفا عزيزا عليه يوم القيامة.

قال: "وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأحقاف: 13-14] {جزاء بما كانوا يعملون} ليس من باب العوض، أنت تدخل الجنة بعملك بالمعوضة؟ لا، بل، بماذا؟ كما سنذكر في الحديث الذي بعده = بالسبب، نقرأ الحديث الذي بعده.

الحديث السادس والثمانون، قال:

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل" رواه مسلم.

والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير، والسداد: الاستقامة والإصابة، ويتغمدني: يلبسني ويستترني.

قال العلماء: "معنى الاستقامة: لزوم طاعة الله تعالى. قالوا: وهي من جوامع الكلم، وهي نظام الأمور". وبالله التوفيق.

(قاربوا وسددوا): كن معتدلاً، وسطاً في دين الله -سبحانه وتعالى-، لا غلو ولا تقصير، لا غلو الخوارج ولا تقصير المرجئة، من غير تشديد "ما شاد الدين أحدٌ إلا غلبه".

(وسددوا): أن تكون مستقيماً، مصيباً للحق بما تستطيع.

(واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله) بعد كل ذلك أنت لا تتجو يوم القيامة بعملك إنما بماذا؟ قال: (إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) عندما قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ حتى أنت؟ الذي قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) إلا أن يلبسني ويستترني -سبحانه وتعالى- برحمة منه وفضل، وهذا قال الشيخ العثيمين: "هذا الحديث يدل على أن الاستقامة على حسب الاستطاعة، وهو قول النبي ﷺ "قاربوا وسددوا" قاربوا ما أمرتم به، واحرصوا على أن تقربوا منه بقدر المستطاع، "وسددوا" قال: إحرصوا على أن تكون أعمالكم مصيبة للحق بقدر المستطاع" فالإنسان يخطئ ويتوب، وقد قال ﷺ: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم".

الباب الذي بعده باب قريب من هذا، ولم يذكر فيه المؤلف إلا الآيات وأنعم بها، ولم يذكر أحاديث في هذا الباب، وهو الباب التاسع:

قال: **(باب التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى، وفناء الدنيا، وأهوال الآخرة، وسائر أمورهما، وتقصير النفس وتهذيبها، وحملها على الاستقامة):**

حقيقة هذا هو مقصود العبادة، عندما تعبد الله - سبحانه وتعالى - لا بُدَّ أن تتفكر وأن تتدبر بعد كل طاعة، بعد أن تصلي تفكر ماذا فعلت فيك الصلاة؟ هل غيرت في قلبك شيئاً؟ هل تراها تنهاك عن الفحشاء والمنكر؟ هل تراها قد أثرت في قلبك؟ هل فعلت الصلاة وأنت محب لذلك أم واجب قد رميته عن ظهرك؟ كان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة، كان يقول: "أرحنا بها يا بلال"، فماذا أنت فاعل في هذه الصلاة؟ عندما تأتي بعبادة الزكاة هل تعلم أن مالك قد زكي ونمى وبورك فيه، وأنه محفوظ لك في الدنيا والآخرة، أم تقول: أن هذا كدّين رغما عنك قد دفعته، كذلك في الصيام: هل تعلم أن هذا الجوع والعطش لله - سبحانه وتعالى -، وخير لك في الدنيا وفي الآخرة، والحج، وسائر العبادات، تفكر في عبادتك، وبعد عبادتك كن خاشعاً متواضعاً متذللاً لله، متفكراً في فوائدها وحكمها، ونعم الله - سبحانه وتعالى - عليك، لذلك قال المؤلف: **(قال الله تعالى: {قل إنما أعظكم بواحدة})** أي: قل يا محمد لأمتك ولأصحابك {إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى} تقوموا كما أمركم الله - سبحانه وتعالى -، سواء كنتم مثنى أو فرادى.

قال بعد ذلك: **{ثم تتفكروا}** بعد نهاية العمل، وتنتهي من عملك = تفكر في هذا العمل. وقال تعالى: **{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ}** [آل عمران: 190-191].

قال: **(الآيات)** تتفكر في خلق السماوات والأرض، وهذا الكون المتناسق المنتظم، الذي لم يخلق عبثاً قال تعالى: {وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين} الله - سبحانه وتعالى - خلقها لحكمة، خلق كونه لحكمة، لم يخلق ذلك باطلاً - سبحانه عز وجل -، تنزه عن هذا أن يكون خلقه لهذه الأشياء باطلاً، بل لغاية وحكمة عظيمة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، فأنت أيها المؤمن تتفكر في خلق السماوات والأرض، تتفكر في اختلاف الليل والنهار، وأوقات الليل والنهار، وتداخل هذا في هذا، وأن النهار يكون فيه حر، ويكون فيه برد، وفي الليل كذلك، هذا يكون سكونا، وهذا يكون ضوضاء وغير هذا، هذا فيه ضوء وهذا فيه عتمة، أشياء كثيرة، تتفكر فيها وحكم كثيرة تخطر على بالك، حتى تعلم أن الله - سبحانه وتعالى - هو الخالق المتفرد بالخلق والملك والتدبير - سبحانه وتعالى -.

قال: **(وقال تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت})** الإبل العظيمة خلقها الله لك وسخرها لك، قوية إذا شذت هذه الإبل، لا تستطيع على مسكها، بل لربما تهلك الإنسان إذا وقعت عليه، ولكنها صارت مسخرة لنا بأمر من الله؛ لذلك إذا اعتليت دابة ماذا تقول؟ {سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين} ما كنا له مطيقين، لا نستطيع عليه لولا أن سخره الله لنا، أما هذه الإبل فهي قوية؛ أقوى من الإنسان، ولكنها مسخرة لهذا المخلوق، وهذا بفضل الله تعالى؛ لذلك احفظ نفسك أيها الإنسان، واعرف قدرك، واعلم أنك مخلوق للعبادة، سخر كل شيء لك، وخلق ما في الأرض جميعاً لك، لماذا؟ قال: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} لتعبد الله، ولتتفرغ إلى طاعته، ولتتفكر في خلقه من سماء وأرض وغير ذلك، فتعبد الله كما أمرك، وتكون مستقيماً على طاعته كما يريد - سبحانه وتعالى -، وتبقى تعلم أنك ضعيف مقهور، مغلوب لولا الله - سبحانه وتعالى - لما كنت شيئاً، وأنت يوم القيامة إذا دخلت الجنة فليس بكثير عمل، إنما برحمة من الله وفضل، وكل أعمالك لا تساوي شيئاً أمام نعمة من نعم الله عليك؛ لذلك

إياك أن تتكبر، وإياك أن تغتر بعملك، فلن تدخل الجنة بعملك أبدا، إنما برحمة من الله وفضل منه.

قال: **{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}** [الغاشية: 17-18] رفعت: رفعت بغير عمد، **{وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}** صارت أوتادا في الأرض، رواسي، راسية **{وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}** سبحان الله، الشيخ العثيمين يقول: **"الأرض مسطوحة، ويوم القيامة تمد"** وهذه جعلها الشيخ العثيمين دليلا على أن الأرض كروية، والله تعالى أعلم، ذكر أشياء في هذا الشرح.

قال: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}**.

قال: **{وقال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا}}** آيات كثيرة، والسير على الأرض أنواع وأشكال، لربما يراد بالسير: السير بالأقدام، بالدابة، ولربما يراد بالسير: التفكير، ولربما يراد بالسير: قراءة الكتب، وقراءة أخبار الماضيين، حتى تأخذ العبر والحكم من ذلك.

قال: **{والآيات في الباب كثيرة، ومن الأحاديث: الحديث السابق: "الكيس من دان نفسه"}**.

نعود إلى اسم هذا الباب: **{باب التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى وفناء الدنيا}** فالدنيا زائلة **{واهوال الآخرة}** "اللهم سلم سلم" **{وسائر أمورهما}** في الدنيا والآخرة **{وتقصير النفس}** كلنا مقصرون ولولا ستر الله علينا **{وتهذيبها}** وأن نهذب أنفسنا على طاعة الله، وأن نصبر على طاعة الله، قال تعالى: **{واستعينوا بالصبر والصلاة}** عليك أن تصبر، وأن تطوِّع نفسك على الطاعة، {يا أيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا وربطوا} إصبر على معصية الله - سبحانه وتعالى -، وصابر على الطاعة.

قال: **{وتهذيبها، وحملها على الاستقامة}** الاستقامة في هذا الزمان قد يكون صعبا، هذا توفيق أولا وآخرا بيد الله سبحانه وتعالى -، فلذلك أنت تقول: {إياك نعبد وإياك

نستعين} على ماذا؟ {إهدنا الصراط المستقيم} أنت تعبد الله، تريد ذلك، ولكن ذلك يكون بعون من الله -سبحانه وتعالى-، ولذلك جاء في الحديث: "المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير"، "إحرص على ما ينفعك" هذا [هو] المؤمن القوي، على ما ينفعه، "واستعن بالله" إياك أن تظن حتى وإن كنت حريصا على ما ينفعك أنك تستطيع أن تأتي ما تريد، إلا أن تستعين بالله، فلولا إعانة الله لك لما فعلت شيئا، قال: "ولا تعجز" هناك أناس يعرفون ما ينفعهم ولكنهم كسالى، كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من العجز والكسل، فتعوذ بالله من العجز والكسل: "إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن" فإذا حدث كذا وكذا فلا تقل: "لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قال: قدر الله وما شاء فعل" بعد أن تفعل كل الأسباب التي أتاحها الله لك مستعينا بالله لا بقوة نفسك، غير عاجز ولا كسول، ثم إن قدر الله لك شيئا لا تريده تكون مطمئن البال، مرتاح النفس والسريرة تقول: "قدر الله وما شاء فعل"، ولا تقول: "لو أني فعلت كذا" لماذا؟ "لأن لو تفتح عمل الشيطان".

نتوقف عند هذا القدر، صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.